من أمجاد الجيش المصري

(**ديسمبر سنة** 1956)

- 1 -

كانت الأمة العربية في آخر القرن الخامس الهجري وما بعده قد أوهنتها العلل السياسية والاجتماعية حتى تركتها في نزاع الروح، كانت تسير في طريقها المظلم إلى مصيرها المبهم من غير قائد يقود ولا ذائد يذود ولا صالح يصلح! كان وطنها قد تقسمته الأطماع وحكمته الفوضى، وكان دينها قد أفسدته الأباطيل وشوهته الجهالة.

وكانت الأقدار تجرى على سنة الله في المستضعفين من خلقه، تهيئ الأسباب لعدوان القوى، وتعد الوسائل لسلطان القاهر: كانت تهيئ بطرس الناسك ليهاجمها بعصبية الصليب من الغرب، وتعد هولاكو الفاتك ليداهمها ببربرية التتار من الشرق. وقضى الله أن يقهر الصليبيون القدس وأكثر بلاد الشام، وأن يجتاح التتار بغداد وأكثر بلاد العراق. وصحب هذين الوباءين فواجع في الأنفس والأعراض والأموال لا يقاس بها ما قاسته بورسعيد على فظاعته ! ذبح الفرنسيون الذين استولوا على بيت المقدس سنة 492هـ بقيادة جود فروادي بويون سبعين ألفًا من المسلمين ذبح الخراف، وقد بلغت دماؤهم المسفوكة في محراب داود ومسجد عمر ركبتي الفارس الصليبي كما قال المؤرخ الفرنسي " فنك برنتانو "، وظن السفاكون الذين رسموا على قمصانهم أشراط الصليب أن المسلمين قد ابتلعوا ما يملكون من النقود فكانوا يبقرون بطونهم ليبحثوا فيها، فلما أتعبهم شق البطون وفتق المصران كدسوا جثث الأحياء والأموات أكداسًا وأوقدوا فيها النار وأخذوا يبحثون في رفاتها عن الذهب المصهور والجوهر المكنون! ومثل ذلك وأفظع منه فعله التتار في بخارى وبغداد !.

وعلى هذه الوحشية الطاغية ظل أجداد (جي موليه) ينشرون الفزع والجوع والذل في فلسطين والشام إحدى وتسعين سنة تبددت في عواصفها أضواء الإسلام، وتطامنت في زلازلها كبرياء العروبة. ووقع بعد قرن ونصف من الزمان ذلك الطوفان الدموي الذي فار في الشرق بتغلب التتار على الخلافة في العراق ثم انتشر حتى اجتاح الشام

وهدد مصر، فدجا الظلام حتى كاد يسطو على نور الوحي، وكلب الزمان حتى كاد يعفي على تراث النبوة. ولولا أن تداركهما الله بالجيش المصري فسحق الصليبيين في (حطين)، ومحق التتار في (عين جالوت) لحلت الكارثة!.

- 2 -

سار صلاح الدين سلطان مصر بجيشه المظفر إلى إمارات الفرنج بفلسطين وسورية مخترقًا جبال سيناء الوعرة في وقدة القيظ حتى احتل طبرية. وفطن الأمراء الصليبيون لما يريد فاستنفر بعضهم بعضًا وتجمعوا بصفورية. وفي اليوم الرابع من شهر يوليو سنة 1187م التقى الصليب والهلال على تلال " حطين ".

فلما تراءى الجمعان ثارت في دماء المصريين حمية الجهاد فمسحوا اللاتين بالسيف وكسحوهم بالخيل حتى قال المؤرخ الفرنسي م. بوجولا في كتابه تاريخ أورشليم: " لقد استحر القتل والأسر بالصليبيين حتى كان من ينظر القتلى يظن أن المسلمين لم يأسروا أحدًا، ومن ينظر الأسرى يظن أنهم لم يقتلوا أحدًا ".

وانخلعت لهذا النصر المبين قلوب الأمراء المستقلين بالمدن الساحلية من فلسطين وسورية فاستسلموا لصلاح الدين ونزلوا على حكمه. وبذلك تطهرت فلسطين من رجس الدخيل الباغي فلم يبق في أيدي الفرنج منها إلا القدس وقد لجأ إليها المنهزمون من المدن المفتوحة، فسار إليها السلطان البطل من عسقلان، وكان حريصًا أن يجنبها ويلات الحرب لقداستها المشتركة بين الأديان الثلاثة، فاستوفد إليه بعض زعمائها وطلب منهم تسليم المدينة فأبوا إلا القتال فأقسم ألا يأخذها إلا بالسيف، وأمر الجيش فسلط على أسوارها المنيعة قذائف الدمار، فلما استيقن " يليان " أن السور لا يمنع وأن القتال لا يدفع، طلب الأمان فأباه عليه السلطان لئلا يحنث في يمينه، فقال له " يليان " بلهجة اليائس: إن في المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليك بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم، ويدمروا متاعهم وأموالهم، ثم يقاتلوا حتى يُقتلوا. فارتاع صلاح الدين لهذا التهديد واستفتى الفقهاء في يمينه فأفتوه بأن ما وقع من القتال وراء السور كاف لإبرار قسمه، وأن في وسعه أن يعتبر من في المدينة من الصليبيين أسرى حرب، فأخذ بهذا الرأي وجعل الفداء عشرة دنانير عن كل رجل، وخمسة عن كل امرأة، ودينارًا عن كل

طفل. وأجلهم أربعين يومًا يؤدون إليه فيها الفداء، فمن وجد منهم في المدينة بعد انقضاء الأجل المضروب أصبح مملوكًا للسلطان. ودخل جيشنا المدينة دخول المهاجرين يثرب: ذكر الله على لسانه، وتقواه ملء قلبه، فلا عين تمتد إلى متاع، ولا يد تنبسط بمكروه. وقام الجباة على الأبواب، فخرج " يليان " ومعه سبعة آلاف فقير أدى عنهم الفدية. وأقبل في عقبه البطريرك الأكبر ومعه كنوز الكنائس من جواهر وذخائر وأموال، فلم يعرض صلاح الدين لشيء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه، وأبى أن يأخذ إلا الدنانير العشرة المقررة. ثم انقضى الأجل ولا يزال في المدينة آلاف من الفقراء الذين لا يملكون الفداء فأصبحوا أرقاء.

قال المؤرخ الصليبي " أرنول " وكان فيمن شهدوا ذلك اليوم: " فتقدم العادل إلى أخيه صلاح الدين وقال له: سيدي، إني أعنتك والحمد لله على فتح هذه البلاد، فهب لي ألفًا من أرقاء هذه المدينة. فلما أجابه إلى ما طلب أعتقهم من فوره. وتقدم " يليان " والبطريرك إلى السلطان بما تقدم به العادل، فوهب كلا منهما ألفًا فأعتقاهم. والتفت صلاح الدين إلى من حوله وقال: لقد أدى أخي صدقته وكذلك فعل " يليان " والبطريرك، وبقي أن أؤدي أنا أيضًا صدقتي. ثم أمر بأن ينادى في المدينة أن العاجز عن أداء الفدية حر لوجه الله وله أن يخرج! فاستغرق خروجهم بياض النهار لكثرتهم كما قال أرنول.

فأين ما فعل صلاح الدين مما فعل جود فروا؟! أليس الفرق بين الفعالين هو الفرق بين الكفر والإيمان، وبين الوحش والإنسان؟!.

– 3 –

استولى السفاح هولاكو على العراق سنة 656هـ ثم اندفع منه إلى الشام اندفاع السيل الجارف عليها، ثم وقف بجنوده القساة على حدود مصر، فلو أنه فتحها لفتح المغرب العربي كله ودمر الحضارة الأوروبية تدميرًا لا حيلة فيه ولا نجاة منه كما يعترف بذلك المؤرخون الأوربيون أنفسهم. وتلك يد أخرى للجيش المصري على العالم بأسره.

أرسل هولاكو إلى سلطا مصر الملك المظفر يتوعده ويتهدده إذا لم يبذل الطاعة ويقر بالخضوع. فثارت به الحمية وملكته عزة النفس واستنفر المصريين لجهاد التتار فنفروا خفافًا وثقالاً وهم يعلمون أن العدو الذي لم يهزم قط بلاء لا يكشف وقضاء لا يرد، فسار بهم إلى فلسطين مقدمًا أمامه الأمير بيبرس وجرت بين المصريين والتتار موقعة عظيمة عند عين جالوت في شهر رمضان من سنة 658.

يقول المقريزي في وصف هذه المعركة: " فلما كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان اصطدم العسكران وفي قلوب المصريين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس وقد امتلأ الوادي، وكثر صياح أهل القرى، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء فتحيز التتر إلى الجبل، فاضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه، فألقى الملك لمظفر عند ذلك خوذته عن رأسه وصرخ بأعلى صوته: وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وحمل بنفسه وبجيشه حملة صادقة فكسروا التتار ثلاث كسرات في ثلاث مرات. وقتل قائدهم كتبغا وانهزموا هزيمة منكرة صدتهم عن مصر وأجلتهم عن الشام وردتهم إلى العراق.

هذان مجدان من أمجاد الجيش المصري كان فيهما مثابة لأمن الشرق وملاذًا لثقافة الإسلام وحمى لحضارة العالم. ولن يكون مجده في بورسعيد آخر أمجاده، ولا جهاده الصادق فيها أعظم جهاده.